تفسير سورة طه

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى

اللقاء الأول

أسماء السورة:

(سُمِّيت هذه السورةُ بـ (طه)؛ لافتتاحِ السورةِ به. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) ، ومما يدلُّ على ذلك:

1- عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قَالَ: (بني إسرائيلَ، والكهفُ، ومريمُ، وطه، والأنبياءُ: هنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ (جمعُ عتيقٍ، وهو القديمُ، أو: هو كلُّ ما بلَغ الغايةَ في الجودةِ، والمرادُ بقولِه: (العِتَاق الأُوَل): السُّوَر الَّتِي أُنْزِلت أَوَّلًا بِمَكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ)، وهنَّ مِن تِلادي (مما حُفِظ قديمًا) (أخرجه البخاري). الدرر السنية

2- عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: (خرج عمرُ متقلِّدًا بالسَّيفِ، فقيل لهُ: إنَّ خَتَنَك (الصِّهْرُ) وأختَكَ قد صبَوَا (أي تركَا دِينَك)، فأتاهما عمرُ وعندهما رجلٌ من المهاجِرينَ يقالُ لهُ: خبَّابٌ، وكانوا يقرؤونَ «طه»، فقال: أعطوني الذي عندَكم فأقرأَه، وكان عمرُ يقرأُ الكتبَ، فقالت لهُ أختُه: إنَّك رِجْسٌ (النَّتْنُ والقَذَرُ وكُلُّ شَيءٍ يُستَقذَرُ)، ولا يمَسُّه إلَّا المطَهَّرونَ، فقُمْ واغتَسِلْ أو توضَّأْ، فقام عمرُ فتوضَّأَ ثمَّ أخذ الكِتابَ فقرأَ «طه» (أخرجه الدار قطني، والحاكم).

فضائل السورة وخصائصها:

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه. قال البقاعي: (ومِن أعظَمِ فَضائِلِها: أنَّ قِراءةَ أوَّلِها كانت سببًا لإسلامِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ الله عنه، وهو الفاروقُ الذي كان إسلامُه فتحًا أيَّد اللهُ به هذا الدِّينَ، ففَرَّق به بينَ الحَقِّ والباطِلِ، فعزَّ به المسلِمون، فرَغِب في الإسلامِ بسَبَبِ ذلك مَن وفَّقَه اللهُ له، وذلك هو عَينُ مَقصودِها): كما في أثرِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ الله عنه المتقدِّمِ قريبًا.

بيان المكي والمدني:

سورةُ (طه) مكِّيَّةٌ (وقيل: مكيةٌ إلا آيتينِ، هما: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ... [طه: 130]، ووَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ... [طه: 131] فمَدنِيَّتانِ)، وحُكِي الإجماعُ على ذلك. الدرر السنية

مقاصد السورة:

من أهمّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ: رعايةُ اللهِ للمُختارينَ لحَملِ الدعوةِ مِن الرسُلِ وأتباعِهم. (نظم الدرر) للبقاعي.

موضوعات السورة: من أهمّ موضوعات هذه السُّورةِ:

1- التَّنويهُ بعَظَمةِ القُرآنِ الكريمِ وأنَّه منزلٌ مِن الله تعالى.

2- تفصيلُ الكلامِ عن قصةِ موسَى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإرسالِه إلى فرعونَ، وما جرَى بينَهما مِن حوارٍ، وأمرِ السحرةِ وما آلَ إليه أمرُهم، وما فعَله بنو إسرائيلَ في غَيبةِ موسَى عنهم، وإضلالِ السامريّ لهم.

3- ذِكرُ جَزاءِ المعرِضينَ عن القرآنِ الكريمِ، وذِكرُ شَيءٍ مِن مشاهِدِ يومِ القيامةِ.

4- بيان مَنزِلةِ القرآنِ، وأنه نزل عربيًّا، وأنَّ الله تعالى صرَّف فيه مِن الوعيدِ.

5- ذكرُ قصَّةِ خَلقِ آدَمَ.

6- أمرُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدةِ أمورٍ؛ منها: الصبرُ، والإكثارُ مِن ذكرِ الله، وعدمُ التطلُّعِ إلى زهرةِ الحياةِ الدنيا، وأمرُ أهلِه بالصلاةِ.

7- الردُّ على مزاعمِ المشركين، وتهديدُهم بسوءِ العاقبةِ إذا ما استمرُّوا على ضلالِهم.

أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8)

﴿ طه ﴿١﴾

(طه) هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها. موسوعة التفسير

فائدة افتتاح بعض السّور بالحروف المقطّعة:

❶ إثارة انتباه ❷ اقامة الحجة على من نزل عليهم القرآن ❸ التحدي.

المناسبة بين اسم السورة والمقصد:

❁ تضمنت السورة جوانب متعددة من أن ما في هذا القرآن المعجز هو السعادة.

❁ وقيل أن (طه) أول كلمة ابتدئت بها السورة وهي تعني خطاباً لطيفاً للنبي صلى الله عليه وسلم إذ معناها على لسان العرب (يا رجل) أو (يا حبيبي) لتكون تمهيداً لما سيعقبها من ظلال اللطف والعناية في ثنايا آيات السورة سواء فيما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم نفسه، أو فيما يحكيه له ربه من

قصص الأنبياء التي تضمنت عناية الله عز وجل، ففي السورة بيان رحمة الله عز وجل بالبشر حيث أنزل إليهم منهجاً من عنده، من تمسك به سعد ومن أعرض عنه خاب وخسر.

فإن الله تعالى أجرى على أيدي الأنبياء السابقين خوارق العادات لتكون معجزة لهم، وبرهاناً على صدقهم، وسبيلاً لإقامة الحجة على أقوامهم، وكانت معجزة كل نبي من جنس ما برع فيه قومه الذين أرسله الله إليهم، فكانت معجزة موسى عليه السلام مناسبة لما غلب على قومه وبرعوا فيه، وهو السحر، فأبطل الله سحرهم، بما أجرى على يديه، كما قال تعالى: (فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأعراف:118] وعجزوا عن معارضته مع خبرتهم وتفننهم في أنواع السحر. وكان قوم سيدنا عيسى عليه السلام ممن برعوا في فنون الطب والتداوي، فشفى الله على يديه ما استعصى عليهم من الأمراض، حتى أحيى الله على يديه الموتى.

ومعجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم معنوية عقلية، وهي أعظم دلائل نبوته القرآن الكريم، فقد تحدى العرب بما فيه من الإعجاز ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة من مثله فعجزوا عن الإتيان بشيء مثله مع أنه كان أميا وكانت قريش أهل البلاغة والفصاحة والشعر وكانوا يرتجلون الكلام البليغ في المحافل ارتجالا قال تعالى: {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} (الإسراء: 88)، ولم يقتصر إعجاز القرآن على نظمه وبلاغته بل تعداه إلى ما حواه من أحكام وأخلاق ودين وتشريع وعلوم عقلية وأخبار عن الأمم الماضية وأخبار بالغيوب مع ما كان معروفا من حال النبي -ﷺ- من أنه كان أميا لا يكتب ولا يقرأ، وقد اعترف أهل الفصاحة والبلاغة بأن القرآن ليس من كلام البشر ولم يقدر أحد على معارضته ومنهم عتبة بن ربيعة فإنه لما سمع القرآن من رسول الله رجع إلى قريش وقال: «والله لقد سمعت قولا ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ»، ومنهم الوليد بن المغيرة وكان المقدم في قريش بلاغة وفصاحة فإنه لما قرأ عليه رسول الله: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْى يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل: 90)، قال له: أعده فأعاده ذلك فقال: «والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه».

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ ﴿2﴾

(مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) أي: ما أنزَلْنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- ليكونَ سَببًا في جلْبِ شَيءٍ من الشَّقاءِ لك. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: ومفهوم ذلك أن القرآن إنما أنزل لسعادته صلى الله عليه وسلم، وسعادة من اتبعه.

قال ابنُ جُزي: (قيل: إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قام في الصلاةِ حتى تورَّمت قدماه، فنزلت الآيةُ تخفيفًا عنه، فالشَّقاءُ على هذا إفراطُ التَّعَب في العبادة، وقيل: المرادُ به التأسُّفُ على كُفرِ الكُفَّار، واللَّفظُ عامٌّ في ذلك كلِّه، والمعنى أنَّه نفى عنه جميعَ أنواعِ الشَّقاءِ في الدنيا والآخرة؛ لأنَّه أنزل عليه القرآنَ الذي هو سَبَبُ السعادةِ). ((تفسير ابن جزي))

قال السعدي: فليس المقصودُ بالوحيِ، وإنزالِ القُرآنِ عليك، وشَرعِ الشَّريعةِ: أنْ تشقَى بذلك، ويكونَ في الشَّريعةِ تكليفٌ يشُقُّ على المكَلَّفينَ، وتعجِزُ عنه قوى العامِلينَ، وإنما الوحيُ والقرآنُ والشَّرعُ، شَرَعه الرحيمُ الرَّحمنُ، وجعله موصِلًا للسَّعادةِ والفلاحِ والفوزِ، وسهَّله غايةَ التَّسهيلِ، ويسَّرَ كُلَّ طُرقِه وأبوابِه، وجعلَه غِذاءً للقلوب والأرواحِ، وراحةً للأبدان، فتلَقَّتْه الفِطَرُ السَّليمةُ والعقولُ المستقيمةُ بالقَبولِ والإذعانِ؛ لعِلمِها بما احتوى عليه مِن الخيرِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولهذا قال تعالى: إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى.

قال ابن القيم: في قوله: (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) جَمَعَ الله لنبيّه سُبحانَه بينَ إنزالِ القرآنِ عليه وبين نَفْيِ الشَّقاءِ عنه، كما قال في آخِرِها- في حقِّ أتبَاعِه: (فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) [طه: 123]؛ فالهُدى والفَضلُ والنِّعمةُ والرَّحمةُ مُتلازِماتٌ لا يَنْفَكُّ بعضُها عن بعضٍ، كما أنَّ الضَّلالَ والشَّقاءَ متلازمانِ لا يَنفَكُّ أحدُهما عن الآخَرِ.

وهذا هو السر الذي جعل كدر الدنيا عند شيخ الإسلام ابن تيمية سعادة؟! قال ابن القيم رحمه الله عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية: والله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، والحبس، والتهديد، والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرَّهُم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً، وقوة، ويقيناً، وطمأنينة، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها، ونسيمها، وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

فالسعادة في سرعة الاستجابة لأوامر الله، هذا المنهج لم يأت حتى يشقى الناس به، إنما هو منهج يضمن السعادة لمن تبعه وطبّقه، وإنما هو تذكرة وهو سبب السعادة في الدنيا والآخرة، فلا يعقل أن يكون المؤمن شقياً كئيباً مغتمّاً قانطاً من رحمة الله مهما واجهته من مصاعب ومحن في حياته وخلال تطبيقه لهذا المنهج الربّاني فلا بد أن يجد السعادة الأبدية بتطبيقه، وهذا هو هدف سورة طه. وهذا المنهج الذي أنزله الله تعالى لنا إنما جاء من عند (الرحمن) فكيف يعقل أن يكون فيه شقاؤنا. وكلنا يعلم معنى كلمة الرحمن. وقد تكررت في السورة كثيراً فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما يرحم خلقه أجمعين. فالمؤمن القائم على منهج الله تعالى في سعادة ولو كان في وسط المحن فالسعادة والشقاء مصدرها القلب.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ ﴿3﴾

(إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى) أي: إنَّما أنزَلْنا عليك القُرآنَ -يا مُحَمَّدُ- تذكيرًا وعظةً لِمن يخشَى اللهَ، ويخافُ عذابَه. موسوعة التفسير

✉أنزل الله القرآن للتذكر حتى تلين القلوب لذكر الله وما أنزل من الحق، فكان هذا الإنزال للقرآن، وهذا الإرسال للرسول صلى الله عليه وسلم من عنايته تعالى ولطفه بالمدعوين حيث لم يتركهم يتخبطون في ظلمات الجاهلية والضلال. موسوعة التفسير الموضوعي

📋**قال السعدي**: (إلَّا ليتذكرَ به مَن يخشَى الله تعالى، فيتذكرَ ما فيه مِن الترغيبِ إلى أجلِّ المطالبِ، فيعملَ بذلك، ومِن الترهيبِ عن الشقاءِ والخسرانِ، فيرهبَ منه، ويتذكرَ به الأحكامَ الحسنةَ الشرعيةَ المفصَّلةَ، التي كان مستقرًّا في عقلِه حسنُها مجملًا، فوافَق التفصيلُ ما يجدُه في فطرتِه وعقلِه... والتذكرةُ لشيءٍ كان موجودًا، إلَّا أنَّ صاحبَه غافلٌ عنه، أو غيرُ مستحضِرٍ لتفصيلِه).

📋**وقال ابن عطية**: (ويَخْشَى يتضمَّنُ الإيمانَ والعملَ الصالحَ؛ إذ الخشيةُ باعثةٌ على ذلك).

📋**قال ابن القيم**: آياتُ اللهِ الإيمانيةُ القرآنيةُ إنما يَنتَفِعُ بها أهلُ التَّقوى والخشيةِ والإنابةِ ومَن كان قَصدُه اتِّبَاعَ رضوانِه؛ وأنها يَتذَكَّرُ بها مَن يخشاه سُبحانَه.

كما قال تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) [ص: 29].

وقال سُبحانه: (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى) [الأعلى: 9، 10].

📖المحور الأول: (1 – 3) القرآن تنزيل من الله للسعادة ولهدي القابلين للهداية. نفى الله سبحانه عن نبيه جميع أنواع الشقاء في الدنيا والآخرة لأنه أنزل عليه القرآن الذي هو سبب سعادته. ثم بين الله تعالى أن هذا القرآن تذكرة لمن من شأنه أن يخشى ويتأثر بالإنذار لرقة قلبه، أو لمن علم الله تعالى أنه يخشى بالتخويف. وهو تنويه بالمؤمنين الذين آمنوا بأنهم كانوا من أهل الخشية ولولا ذلك لما ادّكروا بالقرآن، وهو في الوقت نفسه دعوة لغيرهم ممن سمع هذا القرآن، أن يكونوا من أهل الخشية. موسوعة التفسير الموضوعي

📝آية نقلت مشرك للإيمان، كلام الله عظيم الآثر إن نزل على قلب قابل للحق، عن جبير بن مطعم – رضي الله عنه– قال: سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم– يقرأ في المغرب بالطُّور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾. قال: كاد قلبي أن يطير. صحيح البخاري

📋فمن هم أهل الخشية؟! وهل نحن منهم؟! أهل الخشية والإنابة هم أهل العلم الخاص؛ لأنهم يدركون ما لا يدركُه غيرهم، ويفهمون ما لا يفهمه غيرهم، ويعرفون معرفةً لا تحصل لغيرهم، معرفةً لها شأنها وبركاتها وفضائلها. قد يكون أحدهم أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولم يشتغل بما اشتغل به كثير من المتفقهة، لكنه عند الله من أهل العلم، وفي ميزان الشريعة من أهل العلم، وعند الرعيل الأول والسلف الصالح هو العالِمُ

الموفَّق. وهم بما يُوفَّقُون إليه من حسن التذكر والتفكر والفهم والتبصر يعلمون علماً عظيماً يُفني بعض المتفقهة والأذكياء من غيرهم أعمارَهم ولما يحصّلوا عُشرَه. ذلك بأنهم يرون ببصائرهم ما يحاول غيرهم استنتاجه، ويصيبون كبد الحقيقة، وغيرهم يحوم حولها، ويأخذون صفو العلم وخلاصته، وغيرهم يفني وقته ويضني نفسه في البحث والتنقيب؛ فيبعد ويقترب من الهدى بحسب ما معه من أصل الخشية والإنابة. بل إن أصحاب الخشية والإنابة هم أهل الخطاب الخاصّ في القرآن الكريم، فهو للثقلين عامة، ولأهل الخشية والإنابة خاصة؛ فلهم فيه امتياز لا يشارَكون فيه، وفضل لا يزاحمون عليه، من التوفيق لحسن الفهم والتذكر، والاعتبار والتبصر، والدلالة على ما يتبعون به رضوان الله جل وعلا، وينالون به فضله ورحمته وبركاته في الدنيا والآخرة.

قال عبادة بن الصامت – رضي الله عنه- وهو من أهل هذا العلم - لجبير بن نفير: (إن شئتَ لأحدِّثنَّكَ بأوَّلِ عِلمٍ يُرفَعُ منَ النَّاسِ الخشوعُ يوشِكُ أن تدخُلَ مسجدَ جماعةٍ فلا ترَى فيهِ رجلًا خاشعًا) صحيح الترمذي. فسمَّى الخشوع علماً، وهو كذلك، لأن الخاشع مقبل بقلبه على كلام ربه معظم له، كثير التفكر فيه والتدبر له؛ فيوفق لفهمه والانتفاع به انتفاعاً لا يحصّله من يقرأ مئات الكتب، وهو هاجر لكتاب ربه جل وعلا، ولا من يقرأ القرآن وصدره ضائق بقراءته يصبّر نفسه عليه، ويفرح ببلوغ آخر السورة لينصرف إلى دنياه. قال الفقيه ابن مفلح الحنبلي في كتابه الآداب الشرعية: (عن أحمد أنه قال: كان معروف الكرخي من الأبدال مجاب الدعوة وذكر في مجلس أحمد فقال بعض من حضر: هو قصير العلم. فقال له أحمد: أمسك عافاك الله! وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروفٌ؟! وقال عبد الله: قلت لأبي: هل كان مع معروفٍ شيءٌ من العلم؟ فقال لي: يا بني كان معه رأس العلم خشية الله تعالى)ا.هـ فأهل الخشية والإنابة بما يجعل الله لهم من النور والفرقان الذي يميّزون به بين الحق والباطل، والهدى والضلالة، والرشاد والزيغ، وما يحبه الله وما يبغضه: يحصل لهم من اليقين والثبات على سلوك الصراط المستقيم ما هو من أعظم ثمرات العلم وقد قال الله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} وأهل الخشية والإنابة أعظم الناس حظاً بهذا الفرقان؛ وهو فرقان في القلوب التي استنارت بنور الله تعالى فمشت به. وقد قال الله عز وجل {سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ} (سورة الأعلى:10) فالعلم الصحيح يهدي العبد إلى ربه جلَّ وعلا، وإذا اهتدى العبد إلى ربه وعرفه حق المعرفة خشيه؛ كما قال تعالى لموسى: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (17) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (18) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (19) فالخشية هي مفتاح فهم القرآن وتدبره والاعتبار بما فيه، وهي باب التذكر النافع الذي يزداد به اليقين ويرتفع به الإيمان وتزكو به النفس، ويتيسَّر به اتباع الهدى. فهم الدليل الخاص إلى ما يدل عليه القرآن المجيد من الفضائل العظيمة والخزائن الكريمة التي جعل الله مفاتيحها لأهل الخشية والإنابة؛ لما في قلوبهم من تعظيم الله جلَّ وعلا والإقبال عليه وعلى

كتابه؛ فكان من إكرام الله لهم أن أقبل عليهم بخطابه الخاص؛ فالناس يقرؤون القرآن، وهؤلاء يقرؤونه، ولكن شتان بين القراءتين!!

✉أسباب الخشية ثلاثة جامعة لمعانٍ كثيرة: السبب الأول: محبة الله جل وعلا، فصدق المحبة يحمل على الخشية من الانقطاع عن الله جل وعلا والحرمان من رضوانه. والسبب الثاني: الرجاء، فإنَّ صدق الرجاء يحمل على الخشية من فوات ثواب الله عز وجل وفضله العظيم. والسبب الثالث: الخوف، فالخوف الصادق يحمل على خشية التعرض لسخط الله وعقابه. فعادت أسباب الخشية إلى أصول العبادات القلبية الثلاثة: (المحبة والرجاء والخوف) فهي أركان العبادة، فخشية العبادة لها لوازم تعبدية من المحبة والخوف والرجاء. ملتقى أهل التفسير

✉وهذه الثلاثة جاء ما يغرسها في النفس في طيات سورة (طه) من معرفة الله حق المعرفة لأنه من عرف الله بأسمائه وصفاته أحبه ومن أحبه هابه. وجاء فيها تعداد لنعم المنعم سبحانه وهذا يدعو لمحبه. وجاء فيها أهوال يوم القيامة، وعاقبة من يكذب بآيات الله وهي تبعث في النفس الخوف. وجاء فيها جزاء من يتبع آيات الله وهذا باعث للرجاء. فجاء في آيات سورة (طه) ما يغرس في النفس هذه المعاني الثلاث حتى نكون من أهل الخشية المستجيبين لأوامره لنحظى برضاه فنسعد. هذا هو الطريق الأول حتى ننتفع بما في القرآن وهو أن نكون من أهل الخشية. موسوعة التفسير الموضوعي

﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا﴾ ﴿4﴾

(تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا) أي: نزل هذا القرآنُ تنزيلًا مِنَ الله الذي خلقَ الأرضَ المنخَفضةَ والسَّمواتِ العاليةَ الرَّفيعةَ. موسوعة التفسير

قولُ الله تعالى: وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا فائِدةُ وَصفِ السَّمواتِ بالعُلا: الدَّلالةُ على عِظَمِ قُدرةِ مَن يخلُقُ مِثلَها في عُلُوِّها، وبُعدِ مُرتقاها؛ إذ لا يُمكِنُ وُجودُ مثْلِها في عُلوِّها مِن غيرِه تعالى. موسوعة التفسير

📃**قال ابن حيان:** تَفخيمٌ وتعظيمٌ لشأْنِ القُرآنِ؛ إذ هو منسوبٌ تَنزيلُه إلى مَن هذه أفعالُه وصِفاتُه، وتَحقيرٌ لمعبوداتِهم، وتَحريضٌ للنُّفوسِ على الفِكْرِ والنَّظرِ.

📃**قال السعدي:** كثيرًا ما يُقرَنُ بينَ الخلقِ والأمرِ، كما في قوله: تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا وقَولِه: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وقَولِه: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ وذلك أنَّه الخالقُ الآمرُ الناهي، فكما أنَّه لا خالقَ سواه، فليس على الخلقِ إلزامٌ ولا أمرٌ ولا نهيٌ إلَّا مِن خالقِهم، وأيضًا فإنَّ خلقَه للخلقِ فيه التدبيرُ القدريُّ الكونيُّ، وأمرَه فيه التدبيرُ الشرعيُّ الدينيُّ، فكما أنَّ الخلقَ لا يخرجُ عن الحكمةِ، فلم يخلقْ شيئًا عبثًا، فكذلك لا يأمرُ ولا ينهَى إلا بما هو عدلٌ وحكمةٌ وإحسانٌ.

قال البقاعي: في قولِه: تَنْزِيلًا، إلى أنَّه يتمهَّلُ عليهم ترفُّقًا بهم، ولا يُنزِلُ هذا القُرآنَ إلَّا تدريجًا؛ إزالةً لشُبَهِهم، وشرْحًا لصُدورِهم، وتَسكينًا لنُفوسِهم، ومَدًّا لمدَّةِ البركةِ فيهم بتَرَدُّدِ الملائكةِ الكِرامِ إليهم، كما أنَّه لم يُهْلِكْهم بمَعاصيهم؛ اكتفاءً ببيِّنةِ ما في الصُّحفِ الأُولى، بل أرسَلَ إليهم رسولًا.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿5﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال السعدي: لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّه الخالقُ المدَبِّرُ الآمِرُ الناهي؛ أخبَرَ عن عظمته وكبريائِه، فقال تعالى:

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) أي: الرَّحمنُ علا وارتفَعَ على عَرشِه، كما يليقُ بجَلالِه. موسوعة التفسير

وهنا تنبيه مهم على خطأ كبير يقع فيه كثير من الناس يقولون "إن الله موجودٌ في كل مكانٍ" فهذا كفرٌ وضلالٌ، يقوله الجهمية والمعتزلة ونحوهم من أهل البدع، وهذا من أقبح الكفر والضَّلال، فلا يُقال: إنَّ الله في كل مكانٍ، تعالى الله علوًّا كبيرًا، بل هو كما أخبر عن نفسه: فوق العرش، وعلمه في كل مكانٍ. ابن باز رحمه الله تعالى

قال ابن القيم: فاستوى على عَرْشِه باسْمِ الرَّحمنِ؛ لأنَّ العرْشَ مُحيطٌ بالمخلوقاتِ قد وسِعَها، والرَّحمةُ مُحيطةٌ بالخَلْقِ واسعةٌ لهم؛ فاسْتَوى على أوسَعِ المخلوقاتِ بأوسَعِ الصِّفاتِ؛ فلذلِكَ وسِعَت رَحمتُه كلَّ شَيءٍ (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) [الأعراف: 156].

قوله تعالى: {الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ} وصف الله تعالى بالرحمانية للإشارة إلى أن تنزيل القرآن أيضاً من أحكام رحمته تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى: {الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ}.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ﴿6﴾

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) أي: لله وَحْدَه مُلكُ جَميعِ ما في السَّمواتِ، وجميعِ ما في الأرضِ، وما بينَهما وما تحتَ التُّرابِ ممَّا في باطِنِ الأرضِ مِن المخلوقاتِ، وهو المتصَرِّفُ فيهم بتدبيرِه ومشيئتِه وَحْدَه. موسوعة التفسير

الآية جاءت في سياق تفخيم القرآن لكونه نزل ممن خلق الأرض والسماوات العلى، المالك لما فيهما وما بينهما وما تحت الثرى، وهذه الدلالات تدل على عظمة خلق الله تعالى، وهذا فيما أدركه البشر منها بما هيأه الله له من الأسباب والوسائل العلمية. عرف الله تعالى بنفسه بذكر صفات الكمال والجلال والعظمة ليزداد المؤمن اطمئناناً وأنساً به سبحانه، لأنه متعلق بالله الرحمن الذي على العرش استوى، الذي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، الذي له الأسماء الحسنى.

﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ﴿7﴾

✉**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها**: لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أولًا إنشاءَ السَّمواتِ والأرضِ، وذكَرَ أنَّ جميعَ ذلك وما فيهما مُلكُه؛ ذكَرَ تعالى صِفةَ العِلمِ، وأنَّ عِلمَه لا يغيبُ عنه شَيءٌ (تفسير أبي حيان)، فالآيةُ بَيانٌ لإحاطةِ عِلْمِه تعالَى بجميعِ الأشياءِ إثْرَ بَيانِ سَعَةِ سَلْطنتِه، وشُمولِ قُدرتِه لجميعِ الكائناتِ. (تفسير أبي السعود).

وأيضًا لما كان المِلكُ لا ينتظمُ غايةَ الانتظامِ إلَّا بإحاطة العلم، وكان المِلكُ من الآدميين قد لا يعلمُ أحوالَ أقصى ملكِه كما يعلمُ أحوالَ أدناه، لاسيما إذا كان واسعًا، ولذلك يختلُّ بعضُ أمرِه؛ أعلَمَ أنَّه سُبحانَه بخلافِ ذلك، فقال حثًّا على مراقبتِه، والإخلاصِ له (نظم الدرر للبقاعي):

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) أي: وإنْ تجهَرْ بقَولِك -يا مُحمَّدُ - أو تُسِرَّه، فكُلٌّ سَواءٌ في عِلمِ اللهِ؛ فإنَّه يعلَمُ ما تُسِرُّه النفوسُ، ويعلَمُ ما هو أخفى من السِّرِّ ممَّا لم يخطُرْ على قلوبِ العبادِ، يعلَمُ أنه سيخطرُ ببالِهم كذا وكذا، في وقتِ كذا وكذا. موسوعة التفسير

✉والقلب حين يستشعر قرب الله منه، وعلمه بسره ونجواه يطمئن ويرضى، ويأنس بهذا القرب فلا يستوحش من العزلة بين المكذبين، ولا يشعر بالغربة بين المخالفين له في العقيدة والشعور. موسوعة التفسير الموضوعي

🗐**قال ابن عاشور**: (الخطابُ في قولِه وَإِنْ تَجْهَرْ يجوز أنْ يكون خطابًا للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو يعمُّ غيرَه، ويجوزُ أنْ يكونَ لغيرِ مُعَيَّنٍ ليعُمَّ كُلَّ مخاطَبٍ).

كما قال تعالى: (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) [الفرقان: 6].

وقال سُبحانَه: (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) [الأنبياء: 110].

وقال عزَّ وجلَّ: (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) [الأعلى: 7].

قولُ الله تعالى: وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى فيه حَثٌّ على مُراقَبةِ الله تعالى، والإخلاصِ له.

إذا ما خَلَوتَ الدَهرَ يَوماً فَلا تَقُل خَلَوتُ، وَلَكِن قُل عَلَيَّ رَقيبُ

وَلا تَحسَبَنَّ اللَهَ يُغفِلُ ما مَضى وَلا أَنَّ ما يَخفى عَلَيهِ يَغيبُ

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ﴿8﴾

✉**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها**: قال السعدي: لَمَّا قرَّرَ كَمالَه المطلَقَ بعُمومِ خَلقِه، وعُمومِ أمْرِه ونَهيِه، وعُمومِ رَحمتِه، وسَعةِ عَظَمتِه وعُلُوِّه على عَرشِه، وعُمومِ مُلكِه، وعُمومِ عِلمِه؛ نتَج مِن ذلك أنَّه المستحِقُّ للعبادةِ، وأنَّ عبادتَه هي الحَقُّ التي يُوجِبُها الشَّرعُ والعَقلُ والفِطرةُ، وعبادةُ غيرِه باطِلةٌ، فقال:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أي: اللهُ لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو، ولا يستحِقُّ العبادةَ غيرُه؛ فأخلِصوا له العبادةَ وَحْدَه. موسوعة التفسير

(لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) أي: لله وَحْدَه الأسماءُ الكثيرةُ الكامِلةُ في حُسنِها، الدَّالَّةُ على صِفاتِ كَمالِه سُبحانَه. موسوعة التفسير

قال السَّعدي: (مِن حُسنِها أنَّها كلَّها أسماءٌ دالَّةٌ على المدحِ، فليس فيها اسمٌ لا يدُلُّ على المدحِ والحَمدِ، ومن حُسنِها أنَّها ليست أعلامًا مَحضةً، وإنَّما هي أسماءٌ وأوصافٌ، ومن حُسنِها أنَّها دالَّةٌ على الصِّفاتِ الكاملةِ، وأنَّ له مِن كُلِّ صِفةٍ أكمَلَها وأعمَّها وأجَلَّها، ومن حُسنِها أنَّه أمر العبادَ أنْ يَدعُوه بها؛ لأنَّها وسيلةٌ مُقَرِّبةٌ إليه، يحِبُّها، ويحِبُّ مَن يُحِبُّها، ويحِبُّ من يحفَظُها، ويحِبُّ من يبحَثُ عن معانيها، ويتعَبَّدُ له بها؛ قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا).(تفسير السعدي)

قال سُبحانَه: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) [الإسراء: 110].

وقال عزَّ وجلَّ: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [الحشر: 22 - 24].

ولا يعين شيء على الثبات في الدين مثل العلم بالله، من عرف الله حقاً نال لذة السجود، شعر بلذة التسبيح، يستحيي من الله أن يرجع بعد أن وصل.

المحور الثاني: (4 – 8) التنويه بعظمة القرآن لعظمة من أنزله سبحانه. شرع سبحانه بالتعريف بنفسه بذكر بعض أسمائه وصفاته الدالة على سعة رحمته وعظمة ملكه، وإحاطة علمه، فأثبت لنفسه الاستواء على عرشه، وبين سبحانه بأنه مالك لما في السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى لا يشاركه في ملكه أحد، وهو مدبر ذلك كله ومصرف جميعه، ودقة علمه وبأن علمه محيط بجميع ما ملك سبحانه، يعلم ما أعلنوه من القول، وما أسروه لغيرهم أو في أنفسهم، وما هو أخفى من السر مما علم الله وأخفاه عن العباد ولم يعلموه مما هو كائن ولم يظهره لأحد. وهذا الذي هذه صفته هو الذي أنزل القرآن، وهذا نحو قوله تعالى: {قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الفرقان:6] ثم يختتم مطلع السورة بإعلان وحدانية الله بعد إعلان هيمنته وملكيته وعلمه سبحانه، وأن من اتصف بتلك الصفات الجليلة الذي له الأسماء الحسنى وهو المستحق للعبودية المختص بالألوهية، وأنا ما دونه ليس أهلاً للعبادة.

قال الرازي: [وإنما عظم القرآن ترغيباً في تدبره والتأمل في معانيه وحقائقه]. ولما كان هذا القرآن من خالق قوي قدير اتصف بصفات الكمال والجلال فإن الذي يتخذ هذا التنزيل الكامل الخالد مرشداً وهادياً سوف يصل بإذن الله تعالى إلى سعادة الدارين.

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) توحيد ختم الله بها افتتاحية هذه السورة وحياً إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أول ما ابتدأ به –سبحانه– وحيه إلى موسى فقال له: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}.